شعرية السرد في رواية وادي الظلام لعبد الملك مرتاض

كريمة بن قاصير[1]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

مخبر الدراسات التراثية جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

k.benkassir@univ-emir.dz

ليندة خراب

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة-1-

Kharablynda@hotmai.com

تاريخ الوصول:2020/03/06 القبول :2020/05/29 النشر علي الخط :2020/09/15

Received : 06/03/2020 Accepted : 29/05/2020 Published online : 15/09/2020

ملخص:

عرفت الشعريَّة السردية طريقها إلى النقد العربي منذ البداية، وكان عبد الملك مرتاض من هؤلاء النقاد الذين تبنوها تنظيرا وتحليلا، ورواية وادي الظلام إحدى إبداعاته السردية التي وظف فيها مظاهر عدة جعلت منها نصا أدبيا يستحق القراءة والدراسة. وتجلت الشعرية في الرواية من خلال مجموعة من العناصر البنائية إضافة إلى بعض الموضوعات الاجتماعية والسياسية، والتاريخية والتي برع في إخفائها خلف رموز عدة (أشخاص وأمكنة وأزمنة...)، وهذا المقال سيقف عند مرتاض الناقد المبدع، ومرتاض الناقد الاجتماعي من خلال مواضع ومكامن الشعرية السرديّة في وادي الظلام.

الكلمات المفتاحية: شعرية السرد ;عبد الملك مرتاض ;رواية ;وادي الظلام.

Abstract :

The Narrative poetry know its way the arabic criticism from the beginning, and Abdul Malik Murtadh was one of those critics who adopted it in theory and analysis, The novel The Valley of Darkness(*wadi eldhlam*) is one of his narrative creations, in which He employed several aspects That made it a literary text Worth Reading and studying. Poetic was manifested in the novel through a set of elements in addition to some social, political, and historical topics, which He excelled in hiding behind several symbols (persons, places, times ...). This article Will stand at. the Murtadh creative critic, as Will as the social critic Murtadh through the positions and reservoirs of Narrative poetry in the Valley of Darkness *(wadi eldhlam)*.

Keywords: The Narrative poetry ; The novel ; Abdul Malik Murtadh ; wadi eldhlam.

[1] المؤلّف المرسل: كريمة بن قاصير الإيميل: k.benkassir@univ-emir.dz

1. مقدمة:

تعد الشعريّة من أهم القضايا النقدية التي شغلت الحركة النقدية كثيرا، ولقيت إقبالا واسعا من طرف النقاد والباحثين مصطلحا أو منهجا يهتدى به في استنطاق النصوص الشعرية والنثرية على السواء، وذلك باستخراج كوامنها الإبداعية التي ميزتها عن غيرها من النصوص الإبداعية. ومن النقاد العرب الذين اهتموا بالشعرية نقدا وممارسة "عبد الملك مرتاض"، الذي واكب الركب وأخذ بيد النقد الجزائري محاولا تطبيق الشعرية على بعض النصوص الإبداعية في كلا الجنسين. فنجده ناقدا فذا ومبدعا بارعا. فكان من أبرز النقاد المساهمين في بلورة شعرية السرد في نصوصه. ولنا في رواية وادي الظلام أنموذجا حيّا يستحق منا الالتفات إليه واستخراج الشعري منه .

واجهتنا في هذه القراءة إشكالات مهمة، كان علينا الوقوف عندها والإجابة عليها، من خلال النص الموجود بين أيدينا. ومن أهم هذه الإشكالات ماهية شعرية السرد؟، وكيف أسس لها مرتاض تنظيرا وتطبيقا؟ وماهي أهم الملامح الجمالية الموجودة فيه؟

عرفت الشعرية في النقد الغربي بأنها " علم قوانين وإنتاج وتفسير الخطابات وشروط انبثاق المعنى مهما تعددت تمظهراته وتغيرت" (تزفتان، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، 1993، صفحة 11) وتوازي الأدبية عند جاكبسون (Roman Jakobson)والصفة الشاعرية عند هنري ميشونيك، (Henri Meschonnic)وتستعمل للدلالة على تلك الملكة الفردية والموهبة والأسلوب الخاص "باعتبار الشعرية تتجاوز كونها التحليل الشكلي للأدب، إلى كونها دراسة للتظمينات المتبادلة بين اللغة، التاريخ، الأدب. فهي تشمل نفس الرهانات، لكنها فيها تكن مؤَسطة، وقوتها في خفائها. ذلك أن الشعرية تقوم على نظرية للذات والمجتمع" (ميشونيك، راهن الشعرية، تر: عبد الرحيم حزل، 2003، صفحة 11). أمَّا الشعريَّة السرديَّة فهي علم الأدب "بويطيقاpoetic"، ولقد كان للفظ البويطيقا صلةً قديمة بفلسفة أرسطو، وكان معناه دراسة قوانين صناعة الشعر. أما في العصر الحديث فقد "أكسبت البنيوية هذا المصطلح دلالة مختلفة، فالبويطيقا تعني الدراسة المنهجية للأنظمة التي تنطوي عليها النصوص الأدبية من حيث هي مجموعة من القوانين. والغرض من الدراسة في مفهوم البنيوية هو اكتشاف الأنساق الكامنة التي توجه القارئ إلى تفهم شعرية تلك النصوص" (حامد، 1433، 2012، صفحة 162)، ويمثل المقال الذي نشره رولان بارت: "مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة، تحولا رئيسا في مجال تحليل النصوص السردية" (فتحي، 1431، 2010، صفحة 374). وقد كانت غاية المقال هي البحث عن الشكل الأصلي للقصة. وذلك من خلال التركيز على لغة القصة والأعمال والسرد ونظام القصة.

2. مصطلح الشعرية عند مرتاض من خلال كتبه النقدية:

لم يهمل الناقد عبد الملك مرتاض الشعرية، فعُرف في الساحة النقدية بأنه ناقد ومبدع في آن واحد إذ نجده روائيا وقاصا وناقدا محنكا. وكانت الشعرية منهجه في تقييم الأعمال السردية المختلفة. فلم يخل النقد الجزائري من بصمته التأسيسية لمصطلح الشعرية السردية بوصفه ناقدا. كما لم تخل أعماله الإبداعية كذلك من نكات شعرية .

وقف يوسف وغليسي في حديثه عن مصطلح شعرية السرد، وسياقات تداوله في الساحة النقدية العربية، على مجموعة (التقاليب) الاصطلاحية التي عرفها وتداولها النقاد العرب، وهو ما أضفى عليه بعض الغموض، فلم تخرج تلك المصطلحات عن هذه الصيغ "الشعر الذي في السرد، السرد الذي في الشعر، الشعر في السرد، السرد في الشعر، الشعر المسرود، الشعر السردي، السرد الشعري، الشعر سرديا، السرد شعريا/ سرد الشعر، شعر السرد، شعرية السرد، شعر السرديات، سرديات الشعر في الشعر وغير الشعر، ربما في القصة، في الرواية، في المسرح". وقد ركز يوسف وغليسي على عبد الملك مرتاض وكيفية توظيفه لمصطلح شعرية السرد، وذكر أنه من المهتمين به تطبيقا وتنظيرا.

ومن المميزات التي تفرد بها مرتاض أيضا أنه عاد للتراث العربي، واعتمد عليه في التأصيل لمصطلحاته النقدية، فنجده يطلق على الشعرية مصطلح (الماء الشعري)قائلا: "هذا الشيء الذي كان القدامى يطلقون عليه الماء الشعري، وقد نطلق عليه نحن المعاصرين "أدبية الشعر" أو " البويتيك" أو الإنشائية" أو " الشعرية" (عبد الملك، أ. ي، 1996، صفحة 70)، ويقابل "الماءَ الشعري" بمصطلح معاصر وهو الأدبية كمرادف للشعرية وذلك : "لأننا نفهم من الأدبية جوهر الأدب هنا وليس بالمعنى الفلسفي للأشياء، وإنما يعني ببساطة أجمل ما في الأدب، وأصدق ما في عاطفته، وأدفأ ما في جوه، وأروع ما نسجه" (عبد الملك، أ. ي، 1996، صفحة 16). كما نلفي عبد الملك مرتاض لا يفرق بين شعرية الشعر وشعرية السرد، وذلك لأننا" لم نعد نجد فرقا كبيرا بين الشعر الفني والنثر الفني اللذين يجب أن يتعانقا ليشكلا رافدا أدبيا واحدا هو الشعرية أو البويتيك" (عبد الملك، أ. ي، 1996، صفحة 06)، ويقابل مرتاض المصطلحات المعربة "البويتيكا والسيميوطيقا" (حياة، 2013) بالرفض. ومع ذلك نجده يعتمد poétique ذلك المصطلح الألسني الجديد الذي "لم تجد له العربية بعد معادلا مقبولا" (عبد الملك، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، 1983، صفحة 26)، واستخدم أيضا مصطلح "الشاعرية" عند استقراء بعض النصوص النثرية ويبرر ذلك قائلا:" وعلى أن من حسن حظ القصة الجزائرية المعاصرة أن لغة هؤلاء الكتاب الخمسة في معظمها الأعظم سليمة. وهي لدى عثمان سعدي أسلم، ثم يأتي ابن هدوقة على الرغم من أن أسلوب هذا أجمل نسجا، وأنقى شكلا وأدنى إلى الشاعرية الرقيقة منه إلى النثر العادي الفج" (عبد الملك، القصة الجزائرية المعاصر، 1990، صفحة 225)، لم يهمل مرتاض المصطلح تنظيرا وتطبيقا. فبالعودة إلى الكتب النقدية الخاصة به، حاولنا إحصاء المصطلح عنده، ورحنا نبحث في سياقات توظيفه وكيفية وروده، فوجدنا ما يأتي:

الجدول (1): مصطلح الشعرية عند عبد الملك مرتاض من خلال مؤلفاته.

المصطلح	المصدر
البويتيك la poétique	النص الأدبي من أين؟ إلى أين؟
la poétiqu= الشعرية الشعرية=البويتيك الماء الشعري= الأدبية	أ.ي
الشعرية= الأدبية	السبع المعلقات
الشعرية= الشاعرية	النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟
الشعرانية= la poétique والشعرية= poéticité	في نظرية الرواية " هل الحداثة فتنة"
Poétique الشعريات الشعرانية	في نظرية الرواية
الشعريات=poétique	نظرية النص الأدبي/ الأدب الجزائري القديم الكتابة من موقع العدم.
شعرية (من دون مقابل أجنبي)	تحليل سيميائي للخطاب الشعري تحليل الخطاب السردي_ ألف ليلة وليلة_ بنية الخطاب الشعري

وقد لاحظنا أنّ عبد الملك مرتاض كان يضيف الألف والتاء لمصطلح الشعرية في آخره " للدلالة على أن هذا المصطلح يمثل حقلا من حقول العلم" (عبد الرشيد ، 2019، صفحة 224).

أما الحديث عن شعريّة السرد عند مرتاض، فيتطلب منا الانتقال من مستوى التنظير إلى الممارسة، وذلك بالانعطاف إلى روايته وادي الظلام، للوقوف على طريقة مرتاض في تطبيق أسس شعريّة السرد وتوظيف مختلف جمالياته.

3. شعرية السرد عند عبد الملك مرتاض في روايته وادي الظلام:

"وادي الظلام " رواية تحكي معاناة الشعب الجزائري في فترتي الاستعمار والعشرية السوداء، حاكى من خلالها الروائي، واقع المجتمع الجزائري بمختلف أفراده ومكانتهم الاجتماعية والثقافية. (المعلم، الإمام، المرأة، ...) وعالجت موضوعات اجتماعية وسياسية شتى؛ الفقر والبطالة والجهل والعدل والمساواة والسلطة والفساد...، وذلك بطريقة رمزية مضمرة، تروي أحداثها العجوز زينب نقلا عن جدها الحكيم البشير، ودارت أحداثها في قرية الجلوليَّة، وكانت عائشة الشخصية المحورية رمز المرأة المتمردة كونها البنت الوحيدة التي حظيت بالتعليم إلى جانب الصبيان. فكانت رمزا للمقاومة والتحدي في سبيل الحرية .

سنحاول استخراج مكامن شعريّة السرد في رواية وادي الظلام من خلال بعض العناصر المتوفرة في الرواية، ونبدأ بالشخصية.

3. 1. الشخصية :

اختلف الدارسون حول مفهوم الشخصية، فقد عدّ حسن بحراوي الشخصية الروائية محض تخييل، فيقول:" الشخصية الروائية ليست هي المؤلف الواقعي وذلك لسبب بسيط هو أن الشخصية محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية محددة يسعى إليها. وتؤدي القراءة الساذجة، من جانبها إلى سوء التأويل ذاك حين تخلط بين الشخصيات التخيلية والأشخاص الأحياء أو تطابق بينهما" (حسن، 1999)، وما تعريفه إلا تكريسا لفكرة تودوروفTodorov) (التي مفادها أن الشخصية الروائية ليست "سوى مجموعة من الكلمات، لا أقل ولا أكثر، أي شيئا اتفاقيا أو خديعة أدبية يستعملها الروائي عندما يخلق شخصية ويكسبها قدرة إيحائية كبيرة بهذا القدر أو ذاك" (حسن، 1999، صفحة 213)

والملاحظ أنّ الرفض الواضح للشخصية، والاكتفاء باعتبارها مجرد علامة لسانية، هو في الوقت نفسه رفض لفكرة أن تطابق الشخصية مفهوم الشخص في الواقع، الأمر الذي يلزمنا باستعراض خصيصتها الأدبية والوظيفة الشعريّة التي تتركها في العمل الروائي، لذلك يجب إعادة الاعتبار للشخصية في العمل الأدبي، لأنّ الشخصية هي:" ركيزة الروائي الأساسية في الكشف عن القوى التي تحرك الواقع" (سيد، 1985، صفحة 19) وتحتل الشخصية في أي قصة مكانة هامة مقارنة بالعناصر الأخرى؛ لأن" الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه" (محمد غ.، 1997، صفحة 526). وقد ذهب النقاد مذاهب مختلفة في دراسة الشخصية، مناوئين بذلك الاتجاه البنيوي، فقسم يوسف نجم الشخصية الروائية إلى " الشخصية المسطحة، الشخصية النامية" (محمد ي.، 1966، صفحة 104_103)

وفيما يلي يعرض الجدول الآتي أنواع الشخصية وتقسيماتها في وادي الظلام بكل خصائصه الداخلية والخارجية:

الجدول(2): أنواع الشخصيات وصفاتها في رواية وادي الظلام.

الشخصية الاجتماعية	الشخصية السياسية	الشخصية الصوفية التراثية	الشخصية التاريخية
المعلم أحمد: الأستاذ الفيلسوف رئيس جمعية حقوق المرأة ورعاية الطفولة. شخصية مثقفة. تحدى الجهل في المحروسة وعلم ابنته عائشة مع الصبية متحديا كل الأعراف المقرة بوجوب تجهيل الفتيات، تعرض للاغتيال بسبب أفكاره التنويرية الداعية للتغيير. عمل في التعليم مدة طويلة ثم انتقل للعمل كتاجر. **المعلمة فاطمة:** المرأة الوحيدة التي تعمل في التعليم إلى جنب الرجال من النسوة النشيطات في الجمعية المدافعة عن حقوق المرأة والطفولة في القرية. **عائشة:** ابنة المعلم أحمد فتاة مثقفة ومتعلمة تمتاز بالجمال الخارق والحسن، ما يؤهلها لتكون إحدى سيدات المحروسة الراقيات،	**الشيخ همدان:** شيخ المحروسة المعظم، طاعن في السن يقارب القرن من عمره، إلا أنه يمتاز بقوة الذاكرة والحكمة. **الشيخ حمدونة:** هو ابن عم الشيخ المعظم، والذي يطمع في رئاسة الجلولية كما اتفقت عليه أعراف المشيخة. فكان يثير الفتنة في الجلولية بهدف تسريع نهاية حكم الشيخ همدان **بكُّور:** تاجر يهودي في الجلولية. يعمل جاسوسا لصالح بني فرناس العدو اللدود للجلولية، فكان يزودهم بالخرائط والمعلومات الحربية مقابل تسديدهم الدين المستحق عليهم بعد نجاحهم في الاحتلال. ودل المستعمر الفرناسي على خزائن الجلولية. **الشيخ حسونة:** أحد شيوخ القبيلة الذين يحكمونها ظاهرا. ومن الذين تخاذلوا في تسيير شؤونها، والتفريط فيها والهروب إلى قبيلته الأم. **أنيتا:** ابنة بكور اليهودي كانت	**أُمَّا زينب:** عجوز في زهاء التسعين من عمرها، تتسم بصفات المتصوفة في الذكر والتعبّد، تحفظ شيئا من القرآن، كانت أحفظ أهل القرية للأخبار وأذكرهم للآثار. وأربعهم في الطب الشعبي والرقي.	**قائد جيش الجلولية المقتول:** رجلا محنكا وشجاعا مقداما وخبيرا بخطط. الحرب في البر والبحر؟ **رجلٌ محنكُ وشجاع** .....

فكان المعلم يرى فيها خيرا عظيما وتكون ذات شان كبير في المستقبل. **زليخة:** زوجة المعلم امرأة بسيطة جاهلة كغيرها من نسوة القبيلة تختلف في تفكيرها عن زوجها وابنتها عائشة التي هي فخر كل أم. **سلطان:** أخ المعلم أحمد تاجر ذا مال وفير. لكن مصدر أمواله مجهولة، يتهرب من الضرائب. **بهيَّة:** بنت الشيخ صالح. إمام مسجد الإمام مالك الذي اغتالته جهات مجهولة، وهي فتاة جميلة، لطيفة، رزينة ومثقفة.	تعمل جاسوسة في قصر الجلولية وتنقل الأخبار لوالدها. **أبو الهيثم:** هو قائد الجماعة المعارضة لنظام الحكم الجلولي، المسؤولة عن الاغتيالات التي حدثت فيها، والذي خطف عائشة ابنة المعلم التي تسببت في إصابته فقدانه عينه.		

تنوعت الشخصية في رواية وادي الظلام، بين اجتماعية وسياسية تاريخية، وقد رمز المؤلف بكل شخصية لوضع عاشته البلاد، فكانت أُمَّا زينب شخصية وقورة رمزت للذاكرة والماضي الذي تناقلته عن أجدادها، وأحضر فيها كل الصفات المحمودة التي توفرت في كبار السن من موسوعية وحلم ورجاحة عقل. وكنى عن حالة الناس المزرية والبائسة في فترة الاستعمار وبعده وصولا للعشرية السوداء، فكان المثقف والفيلسوف منبوذا في مجتمعه في حين الجاهل يحتل مكانة مرموقة، وفي كل هذه الأوضاع المزرية خلق الكاتب شخصية مختلفة مكافحة تحدت كل الأوضاع البالية وحاولت التغيير، وكانت "عائشة" أنموذجا لهذا النمط. لقد عُني الروائي بهذه الشخصية وشجعها على النمو وتوّجها بالنجاح. راسما بذلك مسارا للتفاؤل والإيجابية كما رمز الكاتب للأحزاب المتصارعة في كل فترة بشخصية من الشخصيات، عبر من خلالها عن الوضع المعيش، واحتدام الصراعات بسبب التكالب على السلطة والمال والنفوذ، وتفضيل المصلحة الشخصية على مصلحة الوطن، وهو ما زاد في حجم المأساة الوطنية.

وتلخص هذه الخطاطات أدوار الشخصيات في الرواية وتشرح أبعادها الرمزية:

_ **عائشة= المعلمة= جاكلين= آنيتا =بهية =وطفاء=** المرأة المثقفة الثائرة على العادات والتقاليد، رغم اختلاف المكانة الاجتماعية.

_ **الشيخ المعظم + الشيخ حمدونة+ سلطان+ الشيخ رغبان=** رمز السلطة والقوة والغنى وكذلك الظلم والجهل والفساد. أحزاب متصارعة.

_ **بكور اليهودي+ الشيخ حسون+ الشيخ حمدونة=** الخيانة والغدر.

_ **زليخا+ رحمة+ خيرة=** المرأة الجاهلة الضعيفة الخاضعة لسلطة المجتمع والزوج ولا قيمة لها تذكر.

_ **المعلم أحمد+ الامام صالح+ سعدون=** الثقافة والعلم والتفتح لكل منهم أفكار تنويرية هادفة للتغيير، والحكمة. الأمر الذي جعل منهم عرضة للاغتيال.

_ **أبو الهيثم ورجاله=** المعارضة، الظلم، الجهل، التطرف، الفهم الخاطئ للدين والجهاد. لقد عبّرت كل فئة من الشخصيات عن فكرة مضمرة، وعالجت قضية مستمدة من صميم واقع المجتمع الجزائري. وأما ما خالف المتعارف عليه من الأسماء الدخيلة فهي رمز الاستعمار والتسلط، من أمثال:(آنيتا، بكور اليهودي، جاكلين، ابن حسونة....).

3. 2. الحيزEspace /Space :

لكل عمل روائي مجال جغرافي وحيز فني، يختاره الكاتب ليكون حلبة سير أحداثه زارعا فيه خصائص ومميزات تؤهله لذلك. ذلك أنّ الحيز هو:" المجال الفسيح الذي يتبارى في مضطربة كتاب الرواية فيتعاملون معه بناء على ما يودون من هذا التعامل حيث يغتدي الحيز من بين مشكلات البناء الروائي كالزمان والشخصية واللغة (عبد الملك، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، 1998) أما في رواية وادي الظلام فقد جرت أحداثها في أحياز بعينها نحصي منها:

3. 2 . 1 . الجلولية:

القبيلة التي احتوت معظم أحداث الرواية، من البداية إلى النهاية. ومن الاحتلال إلى الاستقلال، إلى العشرية السوداء، من خصائصها أنّها: **"تمتد على مساحات شاسعة مما يلي وادي الظلام ...بعضها سهلي منبسط، وبعضها جبلي وعر، وبعضها الآخر صحراوي شاسع. وكلها يمتد إلى أقصى آفاق الأرض"** (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 09)

2. 2. المحروسة:

عاصمة الجلولية، تمتاز بالدور البسيطة، والشوارع العريضة، تحتوي على مدرسة الأعيان والجمعية وباقي المرافق العمومية، ارتبط ذكر هذا المكان بذكر المعلم أحمد كثيرا.

3. 2. 3.وادي الظلام :

"**يمتد على مسافات بعيدة من نحو الشمال إلى أقصى الجنوب. وهو يقسم الجلولية شطرين: شطرا شرقيا جبليا، وغابيا، وشطرا غربيا سهليًا رعويا... وهو يجري بالماء الغزير على وجه الدهر.**" (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 11) وهو المكان الذي اتخذه أبو الهيثم وأصحابه للاختباء وإقامة الدهاليز التي يحتمون فيها، وإلى وادي الظلام خطفت عائشة ابنة المعلم؛ فهو مكان موحش قصي تتخلله الغابات الكثيفة. وتسكنه الحيوانات المفترسة.

انقسم الحيز في الرواية موضوع الدراسة إلى مكان رئيسي وأمكنة فرعية. وقد تبنَّت هذه الأحياز أطروحة الرواية، فهي ليست مجرد مواقع جغرافية فحسب، وتكمن شعريّة كل مكان من هذه الأمكنة في أن مرتاض رمز به عن مكان حقيقي يقصده، وهو" الجزائر" بكل سهولها وهضابها، بكل ما تحمله من خصائص وما تتمتع به من خيرات وما تتوفر عليه من قيم ثقافية واجتماعية، فجاء اسم الجلولية قريب من اسمها، وأطلق عليها كذلك اسم المحروسة، ووادي الظلام، وقد رصد الروائي مختلف صور الجلولية، من منظور الأم

زينب التي كانت تنتقل من مكان إلى آخر، فتقوم برصده وفق ما يقتديه مجرى الأحداث في الرواية. ويمكننا تلخيص جمالية الحيز في الروية بالمخطط الآتي:

الشكل (1): جمالية الحيز الروائي في رواية وادي الظلام.

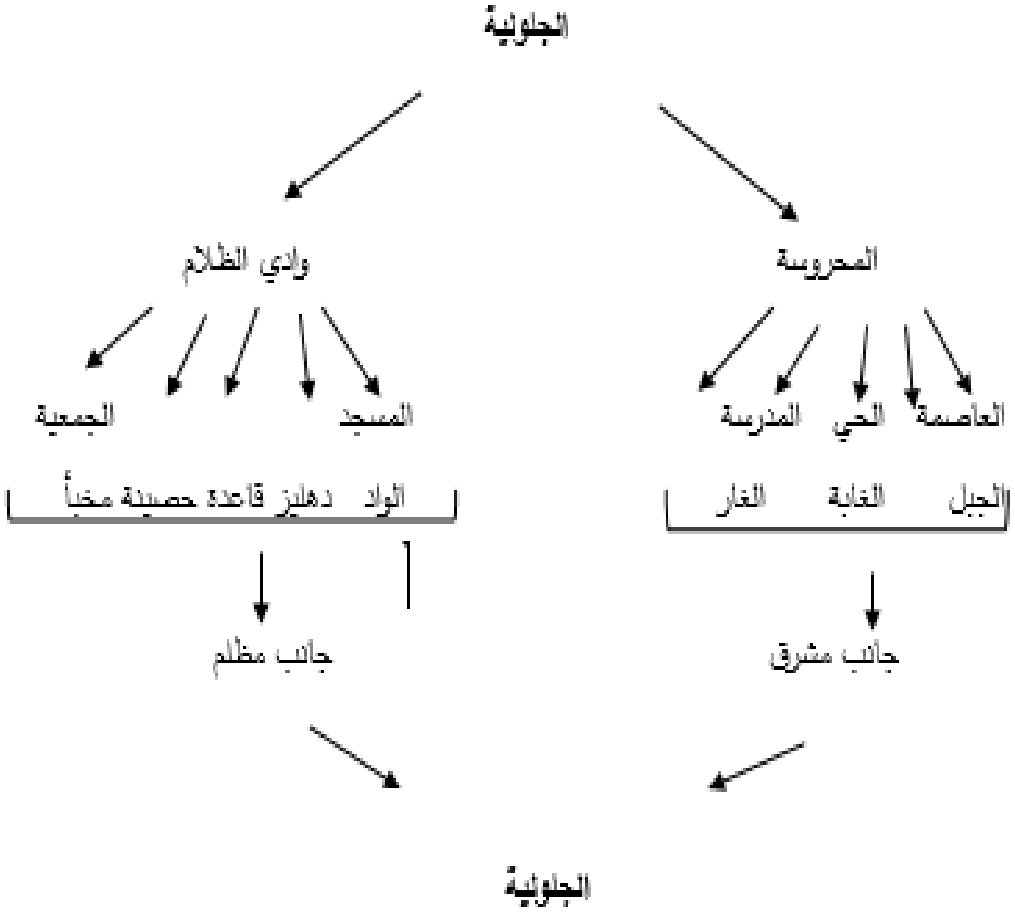

الملاحظ على الحيز الذي دارت فيه الأحداث أنه جاء مكانا مفتوحا واسع الحدود معلوم الأبعاد، لكنّه يحمل في جعبته معاني الانغلاق والضيق، وهو ما أسبغ على هذا الحيز سمتا شعريا، فالحيز هنا يحيل إلى معنى صريح ظاهر، تحدّده الدلالة الجغرافية، ولكنه أيضا يرمز لأمر خفي هو المقصود، لذا ليست الجلولية مجرد مكان، بل هي وطن بكل أبعاده الطوبوغرافية والتاريخية والإيديولوجية، من هنا بدا الروائي مواطنا متشبّعا بالروح الوطنية التي جعلته يخلّد أحداثا ربما كان شاهدا عليها. ولأنّ الإدلاء بالشهادة على ما حدث، كان أمرا خطيرا التصريح به علنا. فقد أسعف التخييلُ الإبداعي وفن السرد المؤلفَ، للتعبير عن المعاناة التي كابدها الشعب الجزائري بكل طوائفه، وراح يصوّر كيف تحولت الجزائر إلى حلبة صراع؛ أبطالها جهات معلومة وأخرى مجهولة أخذت جميعها تترصّد وتقتّل وتغتال.

4. 3. الزمن:

لم تخرج أحداث الرواية عن المألوف حيث لعبتها شخوص، واحتواها مكان وحيز روائي، كان شعريا بالدرجة الأولى، ومن الطبيعي أن يُقيَّد كلّ هذا بزمن جرت فيه هذه الأحداث. لأن الزمانية" شرط أساسي، لأي إبداع تاريخي، مهما كانت درجات تجاوز الواقع" (سعيد ع.، 1405_1985، صفحة 108). وتعد سيزا أحمد قاسم الزمن "عنصرا من العناصر الأساسية التي يقوم عليها فن القص" (سيزا، 1984، صفحة 26) ، وأنّ القص أنسب الأنواع الأدبية لتجسيد الزمن، وقد صاغت رواية وادي الظلام الزمن بطريقة شعرية تستوقف القارئ ، وفيه تظهر مختلف أشكال التجريب والخروج عن المألوف، فكان منطلق الزمن في الرواية الحاضر الذي استعان براوٍ يحكي قصته، فيصف مرة، ويقف أخرى ويستشرف ويسترجع مرات أخر، ومثل ذلك حكي العجوز زينب التي لطالما رددت قائلة : " **يا أولاد لا تستعجلون لا تستثيروني بالله، وأنا لما أبدأ أنا لا أحكي لكم أنتم فقط، ولكني أريد أن أحكي الحكاية كما لو كانت لغيركم، وكما لو وقعت أحداثها كلها قبل اليوم...وقد اختلطت خيوط الحكاية بالقديم والحديث وربما وقع فيها خلط وتكرار، وتقديم وتأخير، وسوء ربط بين الأحداث**..." (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 10)وبهذه الطريقة تكون الرواية قد وضّحت ظروف الحكاية وما يتخلّلها من خلط في الزمن والأحداث. كما يمكننا تبيين هذا الكسر لخط الزمن الرتيب بالمخطط الآتي:

الشكل (2): مخطط يوضح تشظي الزمن وانكساره في رواية وادي الظلام.

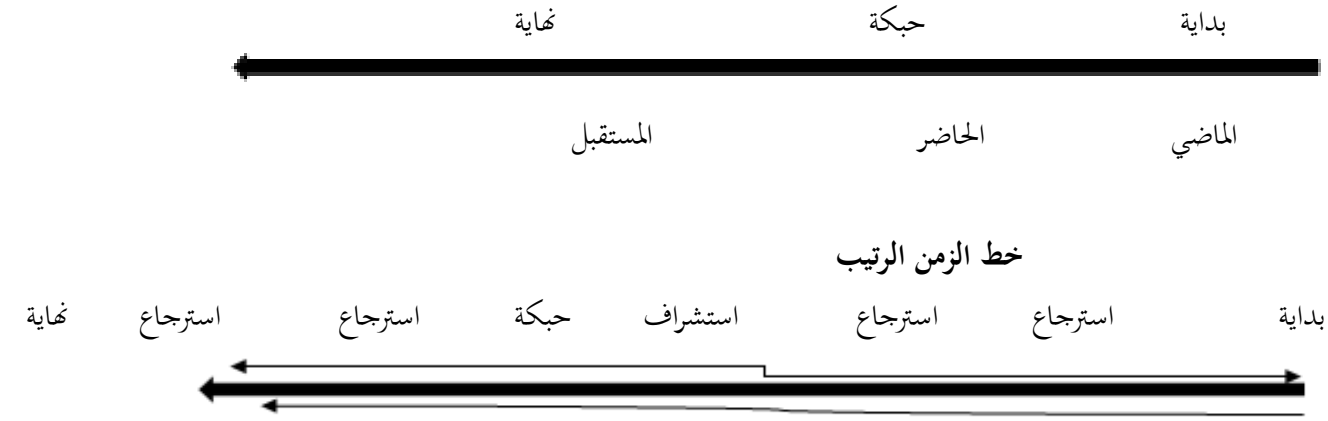

نلحظ من خلال هذا المخطط، أنّ السارد ينطلق من الحاضر على لسان امّا زينب التي تروي القصة "**استجمعت الأم زينب أفكارها ولملمت شتات ذاكرتها** ..." (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 16) لتحكي عن عيد النصر في الجلولية، فمنطلق السرد هو الحاضر الذي سرعان ما يرتد إلى الماضي في رواية يغلب عليها زمن الماضي الذي جسدته ذاكرة العجوز زينب، من خلال الاسترجاعات الكثيرة، فمن الاسترجاعات: "**وذلك منذ أن كان يخطب وما بجانب شجرة فاهتزت ثم بكت ثم اضطربت ثم انتهت إلى أن تقتلع جذورها من أصلها**..." (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 16) وفي موقف آخر نجد:" **غير أنه استلقى على فراشه... لقد أغمض عينيه وبدأ يستعرض خطوات الفتاة الحسناء**..." (عبد الملك، وادي الظلام، 2005،

صفحة 171) كما تتخلل الاسترجاعات بعض الحذف: "نسيت، والله، ما كنا فيه" (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 69) وبعض الوقفات التي تأتي لتقدّم وصفا للأمكنة، والشخصيات الجديدة بغية تعريف القارئ بها، أو لتشد انتباهه بتعليق الحكاية وتأجيلها أو بترها بطريقة شعرية مبدعة، تجعله يشرك مخيلته في المشهد وكأنه حاصل أمامه. فهذه كلّها تقنيات ساعدت في نماء السرد والدفع بالأحداث للأمام مرة والرجوع به للخلف، وتشويق القارئ ودفعه لاستشراف المستقبل، فمن أمثلة ذلك قول السارد: "**أنا واثق أن النهاية ستكون سعيدة بين القبيلتين، وخصوصا حين ستصبح أنت شيخها المعظم قريبا**" (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 34) ومن الاستشرافات التي تحققت في الرواية الحلم الذي ساور المعلم أحمد" **رأيت وقد خرجت يوما من البيت ولم تعد... وظلت زمنا طويلا مفقودة ثم عادت أخيرا** ." (عبد الملك، وادي الظلام، 2005، صفحة 70)

يتشوق كلّ من يقرأ الرواية لمعرفة مصير عائشة. لكن على غير العادة وكما معلوم في السرد أطلعنا السارد على النهاية مسبقا متلاعبا بالزمن والأحداث، مسايرا التجريب مطبقا الشعرية السردية.

ولعلّ من أهم خصائص شعرية السرد في هذه الرواية؛ " الراوي"، فمن الصعب على القارئ أن يحدد من الراوي وما هي الأوصاف التي يتصف بها؟

3. 4. الرؤية السردية :

لا يوجد عمل روائي خال

من هذا العنصر السردي، كونه" وسيط بين الأحداث ومتلقيها" (سعيد ع.، 1405_1985، صفحة 110) ويعتمد الكاتب على السّارد كثيرا في الحكي. وأحيانا يكون هو السّارد نفسه. ومن أهم المهتمين بالرؤية السردية تود وروف الذي قسمها إلى ثلاثة تقسيمات لازال النقد يعتمد عليها في تحليلاته مع بعض الإضافات الطفيفة فقط، وقد صنّف تود وروف الرؤيا السردية إلى:

1 (الرؤية من الخلف) الراوي < الشخصية: " حيث يعرف الراوي أكثر من الشخصيات" (سعيد ي.، 1997، صفحة 293).

2 (الرؤية مع) الراوي= الشخصية: " الراوي يعرف ما تعرف الشخصيات" (سعيد ي.، 1997، صفحة 139) وهي الرؤية السائدة أكثر من الأولى.

3 (الرؤية من الخارج) الراوي > الشخصية: "معرفة الراوي هنا تتضاءل، وهو يقدّم الشخصية كما يراها ويسمعها دون الوصول إلى عمقها الداخلي" (سعيد ي.، 1997، صفحة 239) وهذه الرؤية نادرة الحضور مقارنة بسابقاتها .

في رواية وادي الظلام كانت الرؤية السردية، أو التبئير كما سماها جيرار جينت، متعدّدة حيث نجد الصيغة الأولى حاضرة، مع هيمنة الصيغة الثانية، فالراوي العليم بأحوال الشخصيات الداخليّة والخارجيّة هو الأكثر بروزا، من خلال وصفه الدقيق لحالات الشخصية الفيزيولوجية وكذا النفسية، وما يحيط بها من ظروف، بالرغم من أنّه يروي أحداث ماضية للمتلقي، لكنه كان ينقل وقائع يعلمها، عاشها وكان شاهدا عليها ومشاركا فيها.

تظهر شعرية السرد في وادي الظلام من بداية النّص الروائي إلى نهايته. ولعلّ أكثر ما جعلها كذلك هي رمزية الأشخاص والحيز وكذا الزمن. وختاما البؤرة السردية التي هيمن عليها منظور الراوي المشارك بوصفه شخصية في الرواية، والذي يتقاطع أحيانا مع منظور السارد العليم، فكانت الرواية بذلك ممارسة إبداعية خلّد الروائي من خلالها أحداثا تاريخية وكان الخيال الرمزي وسيلته الشعرية.

وخلاصة القول إنّ الرواية لا تخلو من مظاهر شعرية كثيرة، تستحق الوقوف عندها. مثل اللغة الشعرية، والتراث، كما أنّ الرواية قد ارتبطت بالواقع، وهي حاملة لوجهة نظر مؤلفها، الذي إلى جانب كونه ناقدا محترفا في مجال الأدب، نلفيه ناقدا اجتماعيا معنيا

بنقل ما يجري والاحتجاج عليه، لكن المؤلف توارى خلف رؤيةٍ اجتماعية حمَلتْها الشخصيةُ الروائية وعبّرت من خلالها عن موقفها من الأحداث، وهذه الرؤية متعدّدة وهي تتلوّن مع كلّ شخصية وحدث.

قائمة المصادر والمراجع:

تزفتان تود وروف، مدخل إلى الادب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، ط1، الرباط، 199"، ص11.

هنري ميشونيك، راهن الشعرية، تر: عبد الرحيم حزل، ط2، منشورات الاختلاف، 2003، ص11.

حامد صادق قنيبي، نقد أدبي حديث، مفاهيم ومصطلحات وأعلام، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط2، 1433هـ 2012م، ص162

فتحي بوخالفة، شعرية القراءة والتأويل في الرواية الحديثة، عالم الكتب الحديث، ط1، 1431هـ 2010م، آربد، ص374 .

عبد الملك مرتاض، أ _ ي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1969، ص60، ص16، ص 62.

حياة لصحف، مصطلحات عربية في نقد ما بعد البنيوية، المجلس الأعلى للغة العربية، منشورات المجلس، 2013، ص70.

عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 ص 26.

عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص225.

عبد الرشيد هميسي، مصطلح الشعرية (الأدبية) بين عبد الملك مرتاض وصلاح فضل، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، دورية محكمة، م11، ع1، مارس2019 ص224

حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1999، بيروت، ص213.

سيد حامد النساج، بانوراما الرواية العربية الحديثة، مكتبة غريب، القاهرة، ط2، 1985ص19.

محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،1997القاهرة، ص526 .

محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1966ص103، ص104.

عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر 1998، ع 240، ص125.

عبد الملك مرتاض، وادي الظلام، دار هومة، الجزائر، 2005، ص9.

ص10، ص11، 16،171، 69، 34، 70.

سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشريس، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1405هـ 1985م، ص108، ص110.

سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984، ص26 .

سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1997 ص293.